شرح الأصول الثلاثة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على المبعوث رحمة للعالمين ، نبينا محمد وعلى آله و صحبه أجمعين ، أما بعد---

فهذه قراءة في كتاب أصول الثلاثة للعلامة المجدد محمد إبن عبد الوهاب المتوفى في سنة ألف ومئتين وستة للهجرة ، يقول رحمه الله تعالى في كتابه الذي يعد من نفائس الكتب وأهمها لطالب العلم في بداية طلبه ، يقول رحمه الله تعالى :

إعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل ،

الأولى : العلم وهو معرفة الله و معرفة نبيه و معرفة دين الإسلام بالأدلة

الثانية : العمل به

الثالثة : الدعوة إليه

الرابعة : الصبر على الأذى فيه

و الدليل قوله تعالى : "وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ"العصر

قال الشافعي رحمه الله تعالى : (لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم)

و قال البخاري رحمه الله تعالى : باب العلم قبل القول و العمل ، و الدليل قوله تعالى "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ " محمد 19، فبدأ بالعلم قبل القول و العمل .

هذه المقدمة في هذا الكتاب النفيس تتضمن مسائل مهمة يحتاجها كل مسلمٍ في حياته و يحتاجها طالب العلم دائما في طلبه للعلم ، و قال رحمة الله تعالى عليه : (إعلم) دليل على الأهمية لما ياتي بعده من الكلام ، فما يأتي من الكلام بعد قوله إعلم دليل على أنه كلام مهم ينبغي أن تُرعه سمعك ، و هذا كما قال الله عزوجل " فاعلم أنه لا إله إلا الله "

ثم قال(رحمك الله)فيه تلطف و تنبيه على أنَ مبدأ هذا العلم الرحمة بين المتعلمين ، الرحمة بين الطالب و الشيخ ، الرحمة بين العالم و المتعلم ، ثم قال : (أنه يجب علينا)

أي نحن المسلمين يجب علينا إما وجوبا عينيا وإما وجوبا كفائيا تعلم أربع مسائل ، فأول مسألة ذكرها قال :

العلم ، العلم الذي هو معرفة الله و رسوله ودين الإسلام ، أي العلم بالكتاب و السنة ، العلم بما جاء من عند الله و عند رسوله صل الله عليه وسلم ، و هذا العلم ذو رتبةٍ عظيمة ، فضله الله عز وجل و رتب عليه الفضائل العظيمة فقال الله عز وجل " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ " الزمر ،وقال الله عزوجل "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا" ، و أثنى النبي صل الله عليه وسلم على المتعلمين و بشرهم بأنَ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع ، يقول الشيخ العلامة السعدي :(فطلب العلم إذاً من أفرض الفرائض و أوجب الواجبات ، فإن عليه المدارة في قيام الطاعات و ترك المخالفات فمن يرد الله به خيراً يفقهه ُ في الدين و لم يرد الله به خيراً .....عن طلب العلم و سماعه فكان من الهالكين الجاهلين) ، فطلب العلم هو أول ما يضعه العبد أمام عينيه لأنه لن يستطيع أن يعبد الله إلا بهذا العلم ، يعرف كيف يعبد الله و ما هو دين الله و ما هو ليس من دين الله عز وجل .

ثم بين رحمة الله تعالى عليه أن هذا العلم مداره على ثلاثة أمور :

1- معرفة الله عز وجل ، معرفته في ربوبيته و في ألوهيته و في أسمائه و صفاته كما سياتي بيانه بإذن الله عز وجل .

2- و المدار الثاني في هذا العلم على معرفة النبي صل الله عليه وسلم ، معرفته بالقبول بما أتى به و الإيمان به صل الله عليه وسلم و طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه و زجر و ألا يعبد الله إلا بما شرع .

3- و أما المدار الثالث معرفة دين الإسلام ، أي الإسلام الخاص وهو التعبد لله بما جاء به النبي صل الله عليه وسلم .

قال الله عز وجل "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ "آل عمران 85

و هذه الثلاثة الأمور معرفة الله و معرفة نبيه و معرفة دين الإسلام هي التي عليها مدار هذا الكتاب الذي هو الأصول الثلاثة بعد بعض المقدمات التي سيذكرها الشيخ رحمة الله عليه ، ثم نبه الشيخ على أمر مهم فقال بالأدلة ، و هذا ما ينبغي تربية الناس عليه و هذا الذي ينبغي تربية الناس عليه بل يجب تربية الناس على الأدلة ، على أدلة الكتاب و السنة لذلك من مزايا العالم و مما ......به العالم أنه يربط الناس بأدلة الكتاب و السنة و فهم السلف ، لذلك قال بالأدلة ، ليس بالآراء و لا بالمنامات و لا بالأفكار الشخصية و لا بالأفكار الحزبية و لا بالأهواء ، إنما بدليل الكتاب و السنة ، و الدليل هو المرشد إلى المطلوب ، فاذا تيقين العبد أنه يجب عليه العلم بالله و برسوله و بدين الإسلام وجب عليه أن يعمل بهذا العلم و هي المسألة الثانية التي ذكرها المؤلف رحمة الله تعالى عليه فقال : الثانية العمل به أي العمل بالعلم ،و العمل بالعلم يجب على من تعلم علما واجباً أي يعمل عملاً واجبا ، و يستحب لمن تعلم علماً مستحباً أي يعمل عملاً مستحبا ، فالعمل في الجملة هو من ثمرات العلم و دليل صحة هذا العلم ، لأن الإنسان لو تعلم ما تعلم و لم يعمل بعلمه لم يكن بذلك عالما كما قال الفضيل بن العياض : (لا يزال العالم جاهلاً حتى يعمل بعلمه فاذا عمل به صار عالما)

و كان يقال (من عمل بما عَلم أورثه الله عِلم ما لم يعلم و من لم يعمل بما عِلم يوشك الله أن يسلبه عِلم ما عَلِم)

فالعمل ثمرة العلم و العلم يقتضي العمل و هما توئمان لا ينفكان و هما سبيل و الصراط المستقيم الذي حث الله عليه في كتابه كما قال "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ "الفاتحة

قال الحسن البصري :(العامل على غير عِلم كالسالك على غير طريق و العامل على غير عِلم يفسد أكثر مما يصلح)

لذلك ذم الله عز وجل الذين لا يعملون فقال " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ {2} كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ " الصف ، فالعمل بالعلم من الأصول المهمة التي يجب على الإنسان أن يعمل بها فاذا علم ثم عمل وجب عليه أن يدعو إلى هذا العلم و العمل ، فاذا عِلم و عمل وجب عليه ان يدعو إلى هذا العلم لأنه يكون به نجاته .

أما المسألة الثالثة التي ذكرها المؤلف رحمة الله تعالى عليه قال : الدعوة إليه ، لإن الإنسان اذا نجى بالعلم و العمل كان من واجبات الدين عليه أن يدعو إلى هذا العلم والعمل حتى ينجيَ غيره من هذه الخسارة التي هي الجهل بالله و بدين الإسلام و بنبيه صل الله عليه وسلم ، و الدعوة هي طريقة الأنبياء و الرسل و هي يعني كما قال الله عز وجل"وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا "فصلت 33

فلا أحسن ممن دعا إلى الله وإلى دين الله عزوجل فلا أحسن منه أجراً و لا أفضل منه معرفة بالله و برسوله فدلَ على الخير و دلَ الناسعلى هذا الخير فكان له من الأجر كما يعملون ، إلا أن هذه الدعوة إلى العلم و العمل لا بدَ أن تكون على ثلاثة شروط ....إلى الله و إلى دينه لا بدَ أن تكون على ثلاثة شروط :

--الشرط الأول : العلم

–و الشرط الثاني : الإخلاص

–و الشرط الثالث : أن تكون هذه الدعوة على طريقة النبي صل الله عليه وسلم و صحابته رضي الله تعالى عنهم

–قال الله عز وجل "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوإِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" يوسف 108

فتضمنت هذه الآية هذه الشروط الثلاثة التي هي الأولى الدعوة الى الله ، قل هذه سبيلي ادعوا الى الله اي الدعوة الى دين الله وباخلاص هذه الدعوة لله، اي لا يدعوا الانسان لنفسه ولا يدعوا لحزبه ولا يدعوا لاغراضه الشخصية ولا يدعوا من اجل المال ولا المنصب وانما دعوته لله عزوجل وهذا تنبيه دقيق لانه كما قال الشيخ رحمة الله عليه في كتاب التوحيد لان غالب من يدعوا فإنّما يدعو لنفسه ، وقوله–سبحانه وتعالى– {عَلَىٰ بَصِيرَةٍ} هذا شرط العلم أي أنّ الدعوة إلى الله هذه لابد أن تكون على بصيرة أي على

علم ، والعلم هنا على ثلاثة أنواع:

علمٌ بالشرع يعني بدين الإسلام وما يدعو إليه.

وعلمٌ بحال المدعو أي الذي يدعوه ماهي حاله أهو مسلمٌ؟ أو نصرانيٌ؟ أو يهودي أو مجوسي؟ وهذا المسلم هل هو على فطرة سليمة أم شابت فطرته البدع أم هو ضال منحرف وهكذا ، لابد أن يعرف حال المدعو حتى يدعوه ودل على هذا قول النبي –صلى الله عليه وسلم– لمعاذ ((إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب)).

والثالثة من أنواع العلم العلم بكيفية الدعوة كما قال الله – عز وجل-: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} هذه مراتب الدعوة الدعوة بالحكمة للراغب والمقبل ، وبالموعظة لمن كان عنده شئٌ من البعد، وبالجدال لمن هو عنده خصام لكن هذا الجدال يكون بالحسنة .

أمّا المسألة الرابعة التي ذكرها الشيخ – رحمة الله تعالى عليه– قال:" الصبر على الأذى فيه": يعني إذا تعلم الإنسان وعمل بما يعلم ودعى إلى الله –عز وجل– بإخلاصٍ على طريقة النبي –صلى الله عليه وسلم– فإنّه لابد له من سلاح الصبر ، لأنّه ما من رجلٍ أو ما من امرئٍ دعى إلى الله –عز وجل– إلا وأُوذي وهذه من سنة الله– عز وجل– في خلقه كما قال الله –عز وجل–:{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا}﴿٣٤:الأنعام﴾ ، فالصبر هو سلاح المؤمن الذي يستعين به على دعوته وعلى علمه فبدون الصبر لن يستطيع أن يعمل ولن يستطيع أن يعلم ولن يستطيع أن يدعو إلى الله –عز وجل– بل أدنى فتنة أو أدنى أذية أو أدنى استخفافٍ يصده عن طريقه ودعوته إلى الله –عز وجل– لذلك قال الله –عز وجل– :{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}﴿٦٠:الروم﴾ فمن استجاب للاستخفاف فإنّه استجاب للذين لا يوقنون وسقط في أول أودية طريقه ، ولو تأمّل المتأمِّل طريق الأنبياء والرسل لوجده مليئًا بالمشاق وتحمل تكاليف الدعوة لذلك كان يقال للرسول أو للرسل :{كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}﴿٥٢:الذاريات﴾ والنبي –صلى الله عليه وسلم– يدعو إلى الله – عز وجل– ويضرب ويُؤذى وتكسر رُباعيته ويُشج رأسه وهو يقول ((اللهم اغفر لقومي فإنّهم

لايعلمون)) وتأملوا قول الله –عز وجل- :{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا}﴿٢٣:الإنسان﴾ كان من المنتظر أن يُقال " فاشكر نعمة ربك" ولكنَّ الله –عز وجل- قال:{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} وهذا إشارة إلى أنّ كل من قام بهذا القرآن فلابد أن يناله ما يناله مما يحتاج إليه من الصبر وعلى قدر الصبر بتوفيق الله –عز وجل- تكون الثمرة في الدعوة وتكون النتيجة والإمامة التي تتحصل في دعوة الله –عز وجل- ؛ لذلك قال الله –عز وجل- كما استدل المؤلف –رحمة الله تعالى عليه- :{وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُو وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾} هذه السورة دلت على هذه المسائل الأربعة فبيِّن الله –عز وجل- وأقسم أولاً بالعصر أي بالدهر والزمان الذي هو فيه الوقت وعمر الإنسان فأقسم الله عليه لأنّه أشرف وأعظمُ شيءٍ عند الإنسان يعبد الله –عز وجل- في هذا الوقت وهو أنفس ماعنده يقربه إلى الله –عز وجل- في هذا الوقت فأقسم الله –عز وجل- بالعصر لأهمية وشرف الوقت والزمان وكان جواب القسم{إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} تأملوا أنّ الله –عز وجل- أكد خسارة الإنسان بمُؤكدات: فقال {إِنَّ} وهي من حروف التوكيد {الْإِنسَانَ لَفِي} حرف اللام {لَفِي خُسْرٍ } فاللام للتأكيد ، وقبلها أقسم فأكّد على خسارة الإنسان بثلاث مؤكدات حتى يتيقن الإنسان أنّه هالك لا محالة وأنّه واقعٌ في الخسارة في الدنيا والآخرة لا محالة إلا من اتصف بأربع صفات : الصفة الأولى: {الَّذِينَ آمَنُوا} وهي دليل المسألة الأولى التي هي العلم لأنّ الإيمان لايكون إلا بعلم ومعرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام لا تكون إلا بعلم والإيمان بالله وملائكته ورسله لا تكونُ إلا بالعلم فهذه هي دليل المسألة الأولى .

أمّا دليل المسألة الثانية: وهي العمل بهذا العلم قول الله –عز وجل- {وَعَمِلُو االصَّالِحَاتِ} فالعمل الصالح الذي مبناه على الإيمان والعلم هو ما ينجي من الخسارة فمن حقق الإيمان والعمل الصالح القائم على إخلاص الدين لله ومتابعة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كان من الناجين في نفسه، فأول المرتبتين التي هي الإيمان والعمل الصالح فيها نجاة العبد في نفسه ، أمّا المرتبتان الثانيتان التي هي التواصي بالحق والتواصي بالصبر ففيهما نجاته في نفسه ولغيره ، فالأولى يكون ناجٍ من الخسارة في نفسه والثانية يكون بها ناجٍ من الخسارة في نفسه ولغيره ، فالتواصي بالحق هو التواصي والدعوة للخير والحث عليه والدعوة إلى الكتاب والسنة وسماه حقا أي لا تكون الدعوة إلا على الحق المنزل

من كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– ، قال :{ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} أي يوصي بعضهم بعضًا بالصبر على فعل أوامر الله وعلى هذا العلم وعلى ترك محارم الله وعلى معرفة الله ودينه ونبيه –صلى الله عليه وسلم– ؛ فمن حقق هذه المراتب الأربع كان من الناجين في الدنيا والآخرة حتى قال شيخ الإسلام ابن القيم:"فإذا استكمل هذه المراتب الأربعة صار من الربانيين" ؛ فإذا عرفنا معنى هذه الآية وما احتوته على المعاني الكثيرة التي اختصرنا بعضها في هذه الكلمات نسأل الله التسديد والتوفيق علمنا لماذا قال الشافعي:"لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم" لكفتهم زجرًا وتخويفًا ولكفتهم في سيرهم إلى الله –عز وجل– في العمل والإيمان والدعوة والصبر قال شيخ الإسلام ابن تيميه "وهو كما قال" أي الشافعي فإنّ الله أخبر أنّ جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا ومع غيره موصيًا بالحق موصيًا بالصبر ، والشافعي هو أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة 204 للهجرة ثمّ أكد المؤلف –رحمة الله تعالى عليه– على مسألة قد دل عليها الكتاب والسنة ودلت عليها سورة العصر التي هي أنّ العلم يكون قبل العمل وقبل القول فقال: قال البخاري –رحمه الله تعالى–:" بابٌ العلم قبل القول والعمل " يجب على الإنسان قبل أن يقول قولاً أو يدعو إلى شيءٍ يجب أن يكون على علمٍ يقين بما يدعو إليه أو يقول به أو يعمل به لا يكونُ على جهلٍ من ذلك فالجهل داءٌ قاتلٌ وشفائه أمران في التركيب متفقانِ ، فالعلم إذا كان قبل القول والعمل بورك لصاحبه فيه ولمثقال ذرة من عمل صالح مع يقين وعلم خير من عبادة المغترين الجهال ، فالعلم لابد أن يكون قبل القول والعمل ثم دلل بدليلٍ فقال -رحمة الله تعالى عليه- :{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاإِلَـٰهَ إِلَّا اللَّـهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} ﴿محمد: ١٩﴾ يعني أنّ ما قلته كأنّ الشيخ –رحمة الله تعالى عليه– يقول أنّما قلته ليس هو من رأسي بل هو كلام الأئمة قبلي بل هو كلام الله –عز وجل– فإنّ الله –عز وجل– بدء بالعلم قبل القول والعمل فقال :{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاإِلَـٰهَ إِلَّااللَّـهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} ﴿محمد: ١٩﴾} وأمر بالعلم بأهم معلوم وهو التوحيد توحيد الله -عز وجل- فيجب على العبد قبل أن يخوض في القول والعمل أن يكون على علمٍ فيما يقول ويعمل ، وهذا مما تقرّر عند أهل الإسلام ولله الحمد والمنة إلا أنّ أهل الأهواء والبدع خالفوا في ذلك فجهلوا الناس وجعلوا الناس يسيرون في هذه الدنيا على غير علمٍ شافٍ وكافٍ مما أدى إلى خسارتهم وإلى ضياع

عقولهم وانقيادهم إلى الأفكار المخالفة والشهوات المضلة والشبهات المنحرفة مما أدى إلى ماترون في هذه الأزمان ، وكما قال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي:

ويذهب الدين والدنيا إذا ذهب * العلم الذي فيه منجاةٌ لمعتصمِ .**

وهذه أيضًا المسائل الأربعة جمعها الله –عز وجل– في غير ما آية فقال الله –عز وجل– {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواۖ وَكَانُوابِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}﴿٢٤: السجدة﴾ {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً}: أي أنّ الإمامة في الدين جعلها الله – عز وجل– لمن اتصف بأربع صفاتٍ التي مرت معكم ، {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}: فقوله:{يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا }: أي الدعوة ، و{بِأَمْرِنَا}: يعني بدين الله –عز وجل– ، {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّاصَبَرُوا }: هذا دليل الصبر ، {وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يوقِنُونَ}: فمن كان عنده يقينٌ وصبرٌ كان من أهل هذا الباب وجعله الله – عز وجل– إمامًا يقتدى به ، وعلى قدر الضعف يأتي النقص .

هذا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.